

ولذا فاعتراضه على الاله المسيحي ليس اعتراضا عقلانيا او حتى عاطفيا ، بل هو اعتراض قلبي من العسير علينا كبشر وكأفراد التعاطف معه او تقبله ، ولان احساسه بمأساته قلبي ، فانه يتذكر على التو طفولته بكل سماتها وطقوسها اليهودية :

آلهتي الجديدة ! تجري أمام عيونتي
صور من أيام طفولتي : رجل لم يبلغ الثالثة عشر بعد ،
ذخور في البداية بالبارمتسفا ، وببدي مرتجفة ،
الف حولي القليليم ، (الشال) ، خشية ان يسقط ...
وتحت نير التوراة انحنى ، توراة آبائي .

وحينما يرسم لنا الشاعر صورة حياته اليهودية السابقة ، نكتشف انها « لم تجلب له سوى السعادة » ، فالريح الرقيقة تمر على منزله الصغير تداعبه ، والنحل ينتقل بين الازهار ، واوراق الاشجار خضراء ، اما الثمار فذهبية ، والطيور تشدو وتغرد وتطير فرحة من غصن الى غصن ومن غفن الى غفن .

بعد هذه الصورة المفرطة في الرومانسية ، ينفجر ينبوع الحقد في داخل باروخ ، ويستمطر لعنات الهه على اعدائه من الجويميم :

غليسرع الرب بهلاككم ، ولنصيبكم بالابوثة ،
حتى تدخلوا الزعب على قلوبكم وتولدوا بالفرار من أنفسكم .

ثم يطلب بعد ذلك من الله ان يبتليهم بالأحزان ، وان تحتقرهم الأشياء الزاحفة السامة التي يمتتها التراب ، وان يبلغوا من القبح درجة يخافون معها من النظر الى وجوههم ذاتها ، ويصل هذا الدعاء الكريه الى ذروته القبلية في هذه الابيات التي تذكرنا بدعوات بعض انبياء العهد القديم :

غفرسل يا الهي — اني اضرع اليك ان ترسل سيفك لتثأر منهم ،
ولتتركهم في بؤس شديد ، دون ذرية .
فلتصب حنقك على الامم التي لا تعرفك ،
ولتصب غضبك على الممالك التي لا تنادي اسمك ،
لانهم قد دمروا مساكن شعبك وأكلوا نصيب يعقوب .

وهو في مناجاته لحبييته يتحول الى ما يشبه الفامبير ، مصاص الدماء :

في كل ليلة نصد ، نصد من تبورنا حيث دفنا ،
لنشرب دماء هؤلاء الجزارين حتى تسكر ارواحنا .
نرضع من أنهار الدم ، رشفة رشفة ، قطرة قطرة ،
نسكر من الحزن ونسكر من الآهات حتى تراهم عيناى يرتجفون .
لا يبيل لي صدى ، واشمر بالشماتة من نظراتهم وقد تجمدت اثناء الليل من العاصفة ،
ومن شعرهم الذي يقف من الزعب .

ان عقدة شمشون تسيطر على العقل اليهودي ، فشمشون لم تعلمه هزيمته حب الانسان ، ولم تطهره آلامه من الدنس ، بل كان كل همه ان يحل الخراب على اعدائه حتى ولو أدى هذا الى فئائه هو شخصيا ، وقد استمد العون من ربه في عبارته الشهيرة « علي وعلى اعدائي يا رب » ، وهذا هو حال باروخ ، فهو الآخر شمشون لم يطهره الالم ، بل زاد من ضراوته وانعزاله ، ولذا فهو يشعل النار التي سنأتي على الدير وعلى المدينة ، والتي ستحرق بناته وتؤدي الى هلاكه في نهاية الامر .

انظر هناك ! ان السنة اللهب المتألقة تقفز الى أعلى ،
يداي هاتان هما اللتان قامتا بهذا الفعل ،